الخطبة الأولى: ورجلٌ ذكرَ الله خالياً ففاضت عيناه

الحمدُ للهِ عالمِ السرِّ والعلانيةِ، أحاطَ علمُه بكلِّ خافيةٍ، وأشهد ألا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له عمَّ برُّهُ كلَّ ناحيةٍ، وأشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ وسلم وباركَ عليه وعلى آله وصحبِه أهلِ الفرقةِ الناجيةِ ، وسلَّم تسليماً مزيداً إلى يوم الحشرِ والغاشيةِ.

أَمَّا بعدُ: فأوصيكم ....

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ؛ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ؛ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» خ.م .

في جُمَعٍ سابقةٍ تحدَّثنا عنِ الأصنافِ السِّتَّةِ الأُولى، من هؤلاءِ السبعةِ.

وفي جُمْعَتِنا هذه، سيكونُ حديثُنا عنِ الصِّنفِ السابعِ، وهو آخِرُ الأصنافِ السَّبْعَةِ.

معاشرَ المُؤمنين: إنَّ البكاءَ من خشيةِ اللَّهِ من أعظمِ القُرُباتِ إلى ربِّ العالَمِين، وهو دَأْبُ الأنبياءِ والصالحينَ، ومَقامٌ من مَقاماتِ عبادِ اللهِ المُخلَصينَ، ولقد أثنى اللهُ جلَّ وعلا في كتابِه على البكائِينَ من خشيتِه، الأتقياءَ الأنقياءَ، ذوي الحساسيةِ المُرهفةِ، الذين لا يُسعِفُهُم الكلامُ للتعبيرِ عما يُخالجُ مشاعرَهُم، من حبِّ اللهِ، وتعظيمِهِ، وخشيتِهِ وإجلالِه، فتفيضُ عيونَهُم بالدموعِ، قربةً إلى اللهِ وزلفى لديهِ (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا).

ويكفي أنَّ البكاءَ من خشيةِ اللهِ أنه عاصِمٌ من النارِ، كما قال ﷺ: «لاَ يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ؛ حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ». التِّرْمِذيُّ وغيرُه.

ومع هذا الأجرِ العظيمِ إلَّا أنه في الخَلْوةِ رُتِّبَ عليه أجرٌ زائدٌ على النَّجاةِ من النَّارِ،

وهو النَّجاةُ من هَوْلِ مَوقفِ يومِ القيامةِ وشدَّتِه، وذلك بالِاستظلالِ بظِلِّ اللَّهِ، ومَن كان في ظِلِّ اللَّهِ أَمِنَ مِن فَزَعِ يومِ النُّشُورِوشِدَّتِه وهَوْلِه. "وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ".

إنَّ الخلوةَ -عباد الله- مدعاةٌ إلى قسوةِ القلبِ، والجرأةِ على المعصيةِ، وهذا رجلٌ خَلَى بنفسِه، فذَكَر اللَّهَ بلسانِه وقلبِه، أو بقلبِه فقط، ففاضت عيناه خوفاً من اللَّهِ، أوشوقاً إليه، وقد عَظُمَ أجرُه حتى أُظِلَّ في ظلِّ اللَّهِ؛ لكمالِ إخلاصِه، بخلافِ مَن بكى في حَضْرَةِ غيرِه، فإنه قد يُداخِلُه الرِّياءُ، فيَتَصَنَّعُ البكاءَ، أويَزِيدُ فيه زيادةً لم يكن ليصنعَها لوكان خالياً بنفسِه .

قال ابنُ رَجَبٍ: «فهذا رَجُلٌ يخشى اللَّهَ في سِرِّه، وير اقبُه فِي خَلْوَتِه، و أفضلُ الأعمالِ خشيةُ اللَّهِ في السِّرِّ والعَلَانِيَةِ، وخشيةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ إنَّما تَصْدُرُ عن قوَّةِ إيمانٍ ومجاهدةٍ للنَّفْسِ والهَوَى، فإنَّ الهَوَى يدعو في الخَلْوَةِ إلى المَعاصي، ولهذا قيل: «إنَّ من أَعَزِّالأشياءِ الوَرَعَ فِي الخَلْوَةِ».

وذكرُ اللَّهِ يَشْمَلُ ذكرَ عظمتِه وبَطْشِه وانتقامِه وعقابِه، والبكاءُ الناشيءُ عن هذا هو بكاءُ الخوفِ.
ويَشْمَلُ ذكرَ جَمَالِه، وكمالِه، وبِرِّه، ولُطْفِه، وكَرَامَتِه لأوليائِه بأنواعِ البِرِّ والأَلْطَافِ -لا سِيَّما برؤيتِه فِي الجَنَّةِ-، والبكاءُ الناشيءُ عن هذا هو بكاءُ الشَّوْقِ.

ويدخلُ فيه -أيضاً-: رَجُلٌ ذكر أنَّ اللَّهَ مَعَهُ حيثما كان، فتذكَّرَ مَعِيَّتَه، وقُرْبَه، واطِّلاعَه عليه حيث كَانَ، يَبْكِي حياءً منه، وهو من نوعِ الخوفِ -أيضاً-» اهـ.

معاشرَ المُسلمين: لقد كان السَّلَفُ الصالحُ يحرصون على إخفاءِ بكائِهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وكان هذا حالَهُم في عباداتِهم كلِّها، مَا مِنْ عَمَلٍ يَقْدُرُونَ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي سِرٍّ فَيَكُونَ عَلاَنِيَةً أَبَداً.

قال الحَسَنُ البَصْرِيُّ «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَمَا يَشْعُرُ بِهِ جَارُهُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ فَقِهَ الْفِقْهَ الْكَثِيرَ، وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصَلِّي الصَّلاَةَ الطَّوِيلَةَ فِي بَيْتِهِ، وَعِنْدَهُ الزُّوَّرُ وَمَا يَشْعُرُونَ بِهِ، وَلَقَدْ أَدْرَكْنَا أَقْوَاماً، مَا كَانَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ مِنْ عَمَلٍ، يَقْدُرُونَ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي سِرٍّ فَيَكُونَ عَلاَنِيَةً أَبَدًا، وَلَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وَمَا يُسْمَعُ لَهُمْ صَوْتٌ، إِنْ كَانَ إِلاَّ هَمْساً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ -عَزَّوَجَلَّ-، ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى عَزَّوَجَلَّ- يَقُولُ:

(آدعُواْ رَبَّكُم تَضَرُّعاً وَخُفيَةً)، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- ذَكَرَ عَبْداً صَالِحاً، وَرَضِيَ قَوْلَهُ، فَقَالَ: (إِذ نَادَى رَبَّهُو نِدَاءً خَفِيّاً). أخرجه ابنُ المُباركِ في الزُّهْدِ.

بل كان السَّلَفُ الصالحُ إذا كانوا بحَضْرَةِ أَحَدٍ كتموا ما يَعْتَرِيهم من بكاءٍ، ولوكان هذا الحاضرُمن أقربِ النَّاسِ إليهم.

قال مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ «لَقَدْ أَدْرَكْتُ رِجَالاً، كَانَ الرَّجُلُ يَكُونُ رَأْسُهُ وَرَأْسُ امْرَأَتِهِ عَلَى وِسَادٍ وَاحِدٍ، قَدْ بَلَّ مَا تَحْتَ خَدِّهِ مِنَ دُمُوعِهِ، لَا تَشْعُرُ بِهِ امْرَأَتُهُ، وَلَقَدْ أَدْرَكْتُ رِجَالاً، كَانَ أَحَدُهُمْ يَقُومُ فِي الصَّفِّ فَتَسِيلُ دُمُوعُهُ عَلَى خَدَّيْهِ، لَا يَشْعُرُ بِهِ الَّذِي إِلَى جَنْبِهِ». أخرجه ابنُ أبي الدُّنْيا في الرِّقَّةِ والبكاءِ.

وكان بعضُهم إذا غَلَبَه البكاءُ أمامَ النَّاسِ قام، أو أَخَذَ في حديثٍ آخَرَ، فكَانَ ابْنُ الْمُبَارَكِ إِذَا رَقَّ، فَخَافَ أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ مِنْهُ: قَامَ وَرُبَّمَا أَخَذَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ». أخرجه ابنُ أبي الدُّنْيا في الرِّقَّةِ والبكاءِ.

بل كان بعضُ السَّلَفِ الصالحِ يُنْكِرُعلى مَن أظهر بكاءَه، وإن كان قد يكونُ مغلوباً على أمرِه، فهو معذورٌ، ولكنَّهم يصنعون ذلك خوفاً عليه من الرِّياءِ، وتذكيراً له وللحاضرين بإخلاصِ بكائِهم للَّهِ.

فعن مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا أُمَامَةَ أَتَى عَلَى رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ، وَهُوَ سَاجِدٌ يَبْكِي فِي سُجُودِهِ، وَيَدْعُورَبَّهُ، فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: «أَنْتَ أَنْتَ؛ لَوْكَانَ هَذَا فِي بَيْتِكَ». أخرجه ابنُ المُباركِ في الزُّهْدِ.

وجاءَ أنَّ الحَسَنَ وَعَظَ يوماً، فَنَحَبَ رَجُلٌ، فَقَالَ الْحَسَنُ: «لَيَسْأَلَنَّكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا أَرَدتَّ بِهَذَا . أخرجه ابنُ أبي الدُّنْيا في الرِّقَّةِ والبكاءِ.

ألا فاتقوا الله عبادَ اللهِ وتعوذوا باللهِ من عينٍ لا تدمعُ ومن قلبٍ لا يخشع (فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهم من ذكرِ اللهِ)

اللهم أَحي قلوبَنا بذكرِك، وارزقنا الثَّباتَ على طاعتِك، و افتح لنا الطَّريقَ إلى هدايتِكَ. بارك الله ...

الخطبةُ الثانيةُ

الحمدُ للَّهِ ربِّ العالَمِين ... أما بعد: فمعاشرَ المُسلمين:

إنَّ البكاءَ من خشيةِ اللَّهِ مَنْقَبَةٌ عظيمةٌ، حُرِمَها كثيرٌ من النَّاسِ، ولا سبيلَ إليها إلَّا برِقَّةِ القلوبِ، وما رقَّ قلبٌ للهِ عزَّوجلَّ إلا كان صاحبُه سابقًا إلى الخيراتِ، مشمّرًا في الطاعاتِ والقُرباتِ، وما رقَّ قلبٌ للهِ إلا وجدتَ صاحبَه إذا ذُكِّربااللهِ تذكّرَوإذا بُصِّربه تَبصّرَ.

وما رقَّ قلبٌ بسببٍ أعظمَ من الإيمانِ باللهِ، ولا عرفَ عبدٌ ربَّه بأسمائِه وصفاتِه، إلا رقَّ قلبُه، وصفتْ سريرتُه.

ومن أسبابِ رِقَّةَ القلبِ: النظرُوالتدبرُفي كتاب اللهِ وآياتِه (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)، فالمؤمنُ المتدبرُ لآياتِ اللهِ، هو أرقُ النَّاسِ قلباً، وأنقاهُم نفسًا.

ولا سبيلَ إلى رِقَّةِ القلوبِ كذلكَ إلَّا بالتخفُّفِ من الذُّنُوبِ، فإنَّ أرقَّ النَّاسِ قلوباً أقلُّهم ذنوباً، وإذا عَظُمَت ذنوبُ العبدِ قَسَا قلبُه، وإذا قَسَا قلبُه جَمَدَت عينُه من البكاءِ.

قال ابنُ القيمِ:" ومن لم يلِن للهِ في هذه الدُّنيا قلبُهُ، ولم يُنبْ إليهِ، ولم يُذِبهُ بِحبِه والبكاءِ من خشيتِه، فليتمتعْ قليلًا فإنَّ أمامَه المُلْينُ الأعظمُ، وسيُرَدُّ إلى عالمِ الغيبِ والشهادةِ، فيرى ويعلمُ ".

والله المستعانُ.

عباد الله: لقد جرتنا الدُّنيا إلى مناكِبِها، وألهتنَا بملاذِّها، فبتنَا في شُغْلٍ شاغلٍ، وهمٍّ وإهمالٍ، فنحتاجُ أن نَخرجَ عن صَخبِ اللِّقاءاتِ، وكَثرةِ

الاجتماعاتِ، نحتاجُ أن نبتعدَ قليلاً عن مُخالطةِ الأصحابِ، وننعزلَ ساعةً عن الأهلِ والأحبابِ والشاشاتِ والجوالاتِ، لنخلوَ مع قراءةِ الأذكارِ وتلاوةِ آياتِ الكتابِ، وما تَلذَّذَ المُتلذِّذونَ بمثلِ الخلوةِ بمناجاةِ اللهِ ربِّ العالمينَ والبكاءِ بين يديْه في الخلواتِ (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً)

ثم صلوا ...